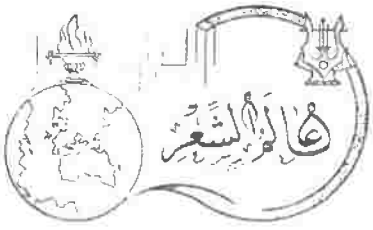

قيصر وفرعون

الى جلالة الملك فؤاد الاول لمناسبة زيارته للاهرام بالجيزة
وفى صحبته جلالة الملك فكتور عمانوئيل الثالث يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٣٣

(مترجمة عن الاصل الانجليزى للشاعر جون درنكووتر)

بأىّ نشاطٍ طروبٍ فى التراب اللازوديّ والارض البرتقاليةِ كان منقاشهُ منذ خمسة آلاف سنة مضتْ يَنقل الى الحياة عصافيرَ سحريةً صغيرةً ومجاديفَ تُغمس فى نيلٍ خياليّ بجوار براعيم اللوتس والحلفاء المُزْهِرَةِ على اللوحة التى أُبدعتْ لتزيّن قبر زوجةِ فرعون !

(وكان هذا قبل أن يأتى اسم ايطاليا الى مصر بزمنٍ مديدٍ)

* * *

صارت القبورُ عتيقةً ، وصاحت روما الامبراطورية بضيالقها شمالاً وجنوباً ، وأرسل قيصرُ الى فرعون سيفاً فكان التراب فى فم فرعون . بَيْدَ أن لفظةً أرقّ ذهبت من التيبر الى النيل حينما سُمع صوتُ أنطونيو تحت شفق كليوباترا .

(وكان الحبُّ المرْوِىُّ[1] مُشْتَعِلاً وقتئذ لما جاءت ايطاليا الى مصر)

* * *

ومرّت روما القديمة ، تفتّتتْ صَخْرُها ، طُرِحَتْ أكاليلُها ، سَيِّرَ الرجالُ عظمتَها بحديثهم ، مات قيصرُ وكان الموتُ تاجَهُ ، وفى الشمس المصرية المحترقة قامت كذلك صوالج وسقطت الى أن صارت طيبة وممفيس كقمرين فُقِدا بعيداً فى طريقين لن يستطيع أحدٌ أن يخبر عنهما !

(١) المأثور

(لذلك جاء الزمنُ بشقائق النعمان لصيتِ[1] ايطاليا ومصر)

* * *

كتبتْ العصورُ رَمْلَها . نحن نقرأ قلبَها فى تواريخ ساطعة أو قاتمة . الآن أنطونيو قديمٌ لنا كما كان فرعون الأول قديماً له . مصر وايطاليا سيّان ، هما الآن ذكرى للرجال ، وتراهما الآن سيين تتيقظان للجلال الحىّ ثانيةً .

(مِثْلُ هذه الحياة — كما ربما لن تأنسَ حياةٌ — جاءت من ايطاليا ومصر)

* * *

اليومَ يُقابل مصرَ المتوّجةَ مَلِكٌ رومانىٌّ فى أُبَّهَةِ الملك ، بينما عُروشُ السنين البعيدةِ والاسطورية تُهدِى الى رؤيا جديدة : ملكين لغاية متوّرة حديثاً ، ملِكين لأمرٍ استُكْشفَ حديثاً ، يسيران فى عالمٍ جديدٍ فى سَلامٍ : هما فرعونُ وقيصرُ تُوّجا حديثاً .

(اكتبْ اذنْ من لَهَبٍ ولاءَ اليوم حينما جاءت ايطاليا الى مصر)

* * *

وتأتى مصرُ بضيفها الملكى فى هذا اليوم ليتسلقَ الرابيةَ حيث بنى الفراعنةُ العظامُ القبورَ التى تشق السماء وما تزال متماسكةً . تقف الآن مخورة بالصور قارئةً ثانيةً تلك الألفاظ الحية حينما نقش هو منذ خمسة آلاف سنة مضت عصافيره السحرية الصغيرة .

(أغنية تقدير باسم الجمال فان ايطاليا جاءت الى مصر)

(١) العسكرى

الى قنبرة . . .

To a Skylark

للشاعر الخالد ب . ب . شيلى

سلامٌ عليكِ شُعاعَ الجمالْ ... وركبَ السموِّ وروحَ الطَّرَبْ
مُحالٌ تكونين طيراً ، محالْ ... وهذا غناؤكِ شيءٌ عَجَبْ
يذوبُ من القلب ، صافى الجلالْ ... ليخلد فى آبداتِ الحِقَبْ
غناءٌ شجيٌّ ، فريدُ المِثالْ ... يُشارفنا مِن ثنايا السُّحُبْ !

* * *

عن الأرضِ دَوْماً طلبتِ البعادْ ... وطرتِ الى حيثما ترغبينْ
كأنك — والجوُّ مثلُ المدادْ — ... سحابةُ نارٍ بـه تسبحينْ
نشرتِ جناحيكِ فوقَ الوهادْ ... وفوقَ المتالع إذْ تعبرينْ
وأرسلتِ لحنَك فيه الوِدادْ ... وفيه الشجونُ وفيه اليقينْ !

* * *

إذا مالتِ الشمسُ تبغى الغروبْ ... وسال على الأفق صافى الذهبْ
أضاء السحابُ بسحرٍ عجيبْ ... وشاع الجمالُ به واستتبْ
وأقبلتِ مثلَ خيالٍ طروبْ ... يطوف جهولاً خلال السحبْ
كأنك فى الجوِّ لغزٌ غريبْ ... يحيط به البشرُ أنَّى ذهبْ !

* * *

إذا طرتِ مانقك الارجُوانْ ... وذاب حواليكِ ثم الحمرْ
كأنك فى الرائع الأضحوانْ ... — على رغم علمىَ — نجمٌ ظهرْ
اذا كان لم ينعم الناظرانْ ... بمرأى خيالك لمَّا سفرْ

فيكفى أغانيك تغزو الجنان وفى الروح أو حولها تستقرّ !

* * *

وهذاك مصباحُ[1] ضوءٍ قوىّ ينير السماءَ اذا ما بَدَا
كقرصٍ رمى بشعاعٍ سنىّ يدعبنا مِن بعيد المدَى
ولكنْ بفجرِ النهار البهىّ تراه يبين ويمضى سُدَى
ويهجرنا حسنُه العبقرىّ إذا ما ذُكاءُ أتتْ بالهدَى !

* * *

يفيض غناؤكِ فوقَ الاديمْ ويسمو فيلمس سقفَ السماءْ
ويُنْشَرُ فى الكون سحرٌ عميمْ يفاوح أرواحنا فى الغناءْ
كما يبعث البدرُ خلف الغيومْ سناه العجيبَ ويُزجى الضياءْ
فنحسبُ أن الوجود القديمْ غريقٌ ببحرِ لجينٍ وماءْ !

* * *

جهلناكِ ... ما أنتِ ؟ ما تشبهين ؟ وماذا جمالُكِ ياساحرَهْ ؟
اذا الجوُّ رانَ عليه الدُّجونْ وحَطتْ به السحُبُ الزاخرهْ
ونام به فُزَحٌ مثل نونْ وجاد بأمطاره الغامرهْ
يفوق غِناكِ القوىّ الحنونْ جَداه وآياتِهِ العامرهْ !

* * *

كأنكِ - مِن خلفِ نور الحجى ومِن بيده - شاعرٌ ثائرُ
يُتمتم آياتِهِ فى الدجى ويطغى عليه هوى جائرُ
ويُنْشَرُ - إمّا هواه سجا - على الكون ، إحساسُه الغامرُ
يَقودُ الى عالَمٍ مُرْتَجَى جميلٍ ، به يهدأ الخاطرُ !

* * *

كأنكِ خَوْدٌ زكا حُسْنُها وطابتْ أرومتُها العاليهْ
يَشعُّ سناءٌ بها خِدْرُها وتَبعثمُ حُجراتهُ الزاهيهْ

(١) القمر

الشاعر شيلى

(١٧٩٢ — ١٨٢٢ م)

يُحَدِّثُها بالهوى قلبُها فيَشغلُ مهجتَها الخاليهْ
فتُقْبل نحو الهوى رُوحُها فتشربُ ألحانَهُ الغاليهْ!

* * *

كأنكِ بين وهادِ النَّدَى سراجٌ من المسجد الصادقِ
يَشيع سناه اذا ما بَدا ويخفى على الاثر كالفارقِ
يبعثر أضواءه كالمُدَى على الزهر والعوسج العالق
فتحجبُها ، لم تبل الصَّدَى ولم تَأتَنِسْ بالبهَى الآبقِ!

* * *

كأنكِ بين الرُّبى وردةٌ ثوتْ بين أوراقها الزاهيهْ
تُناغِمُها فى الدجى هَبَّةٌ من الريح ، تتركها واهيهْ
وتحمل — فى طيها — نسمةٌ أريجَ وريقاتها الغاليهْ
وتلك لَعمرِ الهوى حيلةٌ تلوذ بها النسمةُ العاديهْ!

* * *

بديعُ غِنائِكِ لا يُوصَفُ وصوتُكِ ليس له من نظيرْ
فقطرُ الندى حسنُه أجوفُ — اذا حط — وقتَ الربيع النضيرْ
وغطَّى الربى شكلُه الألطفُ وأيقظ وردَ المروج الكثيرْ
فإنَّ الجمالَ الذى نعرفُ حقيرٌ ، وحسنُكِ حسنٌ خطيرْ!

* * *

بحقِّ جمالك يا قُنْبَرَهْ تقولين ما جال فى خاطركْ؟
وماذا دحاه وما كوَّرَهْ فشاع سناه على ظاهركْ؟
غناؤكِ فى الحبِّ ما أبهرَهْ! ولحنُكِ فى الخفر من ساحركْ
يفيض بحنجرةٍ ماهرَهْ تَبُثُّ المَسَرَّةَ فى سائركْ!

* * *

أغانى السرور إذا ما دوت ... وأنشدها فى الأنام الغيان
واغنية النصر إن رددت ... تميت من ارعب قلب الجبان
إذا ما شدوت فقد أنصتت ... ومادت من السحر إنس وجان
وبادت أغانى الهوى وانطوت ... على إثرها أغنيات الطعان !

* * *

فقصى الحقيقة إذ تشرحين ... ترى أى شىء ينابيع لحياك ؟
وأى بحار الهوى تركبين ؟ ... وأى حقول تمشت بجنبك ؟
وأى سهول وأى حزون ؟ ... وأى سماء ترى فوق أرضك ؟
وما الحب عندك ؟ كيف الحنين ؟ ... وكيف صرعت الهموم بطفرتك ؟!

* * *

حباك الإله بروح السرور ... وأبعد عنك الضنى والضجر
وأخلاك من حازبات الأمور ... وأعطاك ريا الملى والسمر
وأنت تحبين حبا يدور ... كريم الخيال بديع الصور
ولا تعرفين زمانا يجور ... ويأتى بخاتمة لا تسر !

* * *

يطير خيالك صوب المهات ... يصور عقبى الوجود الدنىء
ويبحث فى فلسفات الحياة ... بأحلامه فى الرقاد الهنىء
بما يعجز الباحثين الثقات ... ويسرهم بالبيان الجرىء
وإلا فكيف أنت ساحرات ... أمانيك تسبى تحجرى مضىء ؟!

* * *

نَهيم غراماً بسرّ الوجودْ ونُعْنى بأمر الدُّنى بَعْدَنَا
ونُغرق فى ذكر ما لا يعودْ ونُكثر من شرح ما فاتنَا
وإنْ كان ذا الدهرُ يوماً يجودْ ببسمةِ ثغرٍ فكم ساءنا
ولا بُدَّ أنّ أغانى السعيدْ يخالطها ثائراً حُزنُنَا !

* * *

لو آنا خُلِقنا نعافُ الغرورْ ونَحتقرُ البغضَ والكبرياءْ
لو آنا نشأنا بفكرٍ حقيرْ وطَرْفٍ يعافُ الهوى والبكاءْ
لو آنا درجنا بغير الشعورْ وعشنا على جهلنا والغباءْ
لَكنّا جهلنا دواعى السرورْ سمتْ بالأغانى لِأَوْجِ السماءْ !

* * *

لَعِنْدِى أغاريدُكِ المبدعهْ وأبياتُ شِعْرِكِ ملءَ البيانْ
تفوق كؤوسَ الهوى المترعهْ وتفضل كلَّ أغانى القيانْ
وتُزرى بأسفارِنا المتسعهْ وما قد حوته كنوزُ اللسانْ
لَئِنْ طِرتِ عن أرضنا مُسرعهْ فأوجُ السماء مقرُّ الحَنانْ !

* * *

ألا ليتَ لى نصفَ هذا الغناءْ ويا ليت عقلى شبيهٌ بعقلكْ
فإن بعقلكِ نامَ الصفاءْ يصفّق إنْ فاضَ إلهامُ حُبّاكْ
وهذا الهراءُ وفيه البهاءْ شعورُ جَنانى بضعفى وقدرِكْ
فأَصغى الى لحنِ هذا الغَباءْ كما أنا أُصغى طروباً للحنِكْ !

مُختار الوكيل

لمحة عن شيلى

يكفى شيلى فخاراً تزعمُّه عن جدارة الأغنية الانجليزية وهو فى ميعة الصبى ، وحسبه شرفاً أن يموت فى الثلاثين تاركاً خلفه آثاراً فنية لم يتح ، وربما لن يتاح ، لعباقرة المعمرين من الشعراء أن يخلفوا ما يزّها مهما حاولوا وجاهدوا ... فلو قلنا إن تفكير هذا الشاب الخالد وخياله كانا فوق طاقة النوبغ لما كنّا حائدين عن الحق ولما كنا مبالغين .

وهذه القطعة التى عنيتُ بنقلها اليوم (To a Skylark) تعتبر بدون مبالغة من أجل إن لم تكن أجل القطع الليريكية فى الأدب الانجليزى قاطبة ، ويأتى بعدها قطعة فى الجمال له أيضاً أسماها (Ode to the West Wind) .

ثم لا تنس أنه بمسرحيته (The Cenci) قد برهن على أنه مفكر جبّار ، الذهن . والمُجْمَعُ عليه تقريباً أنها خير المسرحيات من طرازها بعد مسرحيات شكسبير الخالد .

وقد أطلقوا على هذا الشاعر الفذّ اسماً غريباً هو (شاعر الشاعر) : ذلك لأنه يطوف بعواطفنا وإحساساتنا ، عن طريق شعره ، فى عوالم جميلة بهيجة سحيقة مجهولة منا . وقد قال ينعته وليم واطسون :

« هو وردة القصيد القدسية المتوقدة الملتهبة .

« تتمثل فيها كلُّ الألوان ، وتعبق بكلّ العطور ، وتنبت بها كل البراعم .

« يغمرها شعاع الشمس الذهبى ، ويغدق القمر عليها خيوطه الفضية ...

« فى حين هى فى حاجة إلى أن يتأصل جذرها فى الأرض » .

ولعل فى كلام واطسون شيئاً من الحقيقة ، إذْ أنَّ خيالات شيلى الرائعة كانت بعيدة بعداً سحيقاً عن عقول الناس على اختلاف درجاتهم . ولا تزال تحتاج الى كثير من العناية والانتباه عند دراستها ، وستبقى إلى الابد موضع الدهشة ، والاحترام والدراسة .

وليس هناك من يدعى أنه يحب شيلى أكثر من سائر الناس — الذين قرأوه طبعا — إذْ الكلُّ على التحقيق يتساوون فى حبه وتقديره ..

عاش شيلى معظم حياته القصيرة بإيطاليا ، فكتب روائع قصائده بعيداً عن وطنه انجلترة .

مات فى الثلاثين من عمره ، فى الوقت الذى وصل فيه بحقّ إلى ذروة مجده الشعرى ، غرق وهو يبحر من بيزا .

وقد دفنت بقاياه فى المدفن البروتستانتى برومة ، ملاصقة قبر كيتس العظيم ، وقد كتب على قبره (Cor Cordium) أى قلب القلوب .

فلسفة الحب

(مقتبسة من الشاعر الانكليزى شيلى)

رأيتُ ينابيعاً تمازجن بالنهرِ ... وشاهدتُ أنهاراً تخالطن بالبحرِ
وشِمتُ نسيماً فى الاعالى ملازماً ... لعاطفةٍ جاشتْ بصدرىَ إذْ يَسْرى
لكلٍّ على وجه البسيطةِ زوجهُ ... وقد خلتْ الدنيا من المُفْرَدِ الوتر
قضت سنّة الرحمن فى خلقه بأن ... يلازمنا المحبوبُ كالطير فى الوكْر
فلا عذرَ إن لم أمتزجْ بحبيبتى ... لأحيا سعيداً فى اغتباطِ مدى عمرى
وبيننا الجبالُ الشُّمُّ قَبَّلتِ السَّما ... تعانقتِ الأمواجُ فى المَدِّ والجزر
وانْ زهرةٌ تزهو على خِدْنِها فلا ... سبيلَ الى عفوٍ ولا خيرَ فى الزَّهْر
وهاكِ ضياءُ الشمس عانق أرضَنا ... وقبَّل وجهَ البحر نورٌ من البدْر
فما قيمة التقبيل فى الكون كله ... اذا لم تقبلنى المليحة فى ثغْرى؟!
وانْ كان كلٌّ ضمَّ حباً فكيف لا ... أضمُّكِ يا روحَ الفؤاد الى صَدْرى ؟

قسطنرى داوود